

التحليل :

أولاً : العدول عن تنوين اسم الفاعل لتحقيق مثيله في الزمن الماضي :

العدول إلى التركيب الإضافي عن تنوين اسم الفاعل العامل يكسب اسم الفاعل الذي يقع في الحال والاستقبال دلالة الحدث في الزمن الماضي ، وهو تأكيد على وقوعه ، يعتمد إليه السياق مع وجود المسوّغ له ، وفي هذا المبحث دراسة للتركيب الإضافية التي عدل إليها السياق لحدثه عن متحقق موجود في الزمن الماضي يشبه ما جاء به اسم الفاعل المضاف الذي يقع في الحال والاستقبال .

(أتي) :

جاء اسم الفاعل "أتي" مضافاً إلى معموله الاسم الظاهر مرّة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في سورة مريم ، في سياق الردّ على من ادّعى على الله - تعالى- اتخاذ الولد، يقول تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (مريم : ٩٢-٩٣) وإضافة اسم الفاعل العامل دون عمله يدل على إرادة الزمن الماضي ، وإذا كان لا يصحّ عقلاً القول بأن جميع من في السماوات والأرض الذين كانوا والذين يكونون فيما بعد قد أتوا ربهم بالفعل ، فإن المقصود بهذا التركيب: الحكم اليقيني على حدوث هذا الانقياد والإتيان مستقبلاً ، وجاء في صورة الإضافة لجعل ما هو مستقبل في حكم الماضي المتحقق تأكيداً على وقوعه .

ويُظهر أن أصل هذا التركيب الإضافي في التنوين ؛ ما قاله الزمخشري: ((قرأ ابن مسعود وأبو حيوة: "أتِ الرحمن" على أصله قبل الإضافة))^(١).

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ١٢٩/٣

ويوضح الرازي معنى تركيب "أتى الرحمن" ، فيحمل دلالاته على الحال والاستقبال ، مما يبين أن أصل الإضافة التنوين والعمل الفعلي ، فيقول الرازي: ((والمراد أنه ما من معبود لهم في السماوات والأرض من الملائكة والناس إلى هو يأتي الرحمن ، أي: يأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً ، خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد ، ومنهم من حمله على يوم القيامة))^(١).

ولهذا جاء الإتيان (بمعنى التسليم والانقياد واللجوء) على وجه ثبوت الصفة في صورة الإضافة ، لأنه انقياد دائم ، وإن تفاوتت درجات العبودية .

والعدول عن التنوين إلى الإضافة -هنا- جاء لأكثر من مسوغ :

١- تحقق وقوع الإتيان في المستقبل ، لأنه الحساب بعد العمل .

٢- إن مثل هذا الانقياد والتسليم هو ما حدث لعيسى -عليه السلام- فلقد أتى الرحمن عبداً ، وما زال ذلك الانقياد والتسليم لعيسى -عليه السلام- مستمراً له لأنه حي في السماء ، والسورة معنية بالحديث عن ابن مريم ، وسياق التركيب الإضافي يتحدث عن ادعاء الولد لله تعالى .

فالعدول عن التنوين تأكيداً على وقوع الحدث في المستقبل ، ومراعاة لتحقيقه في شخص المسيح عليه السلام ، فجاء اسم الفاعل العامل في صورة الإضافة الدالة على الزمن الماضي مع أن المراد الزمن المستقبل .

جامع :

جاء اسم الفاعل "جامع" مضافاً للاسم الظاهر مرتين ، وذلك في قوله تعالى:

١- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ٩).

٢- ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ

(١) الرازي ، التفسير الكبير ، ٢٥٥/٢١

اللَّهُ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿النساء: ١٤٠﴾.

يقول الرازي عن أصل التركيب الإضافي "جامع المنافقين": ((وأراد: "جامع المنافقين" بالتنوين ، لأنه بعد ما جمعهم ، ولكن حذف التنوين استخفافاً من اللفظ ، وهو مراد في الحقيقة))^(١).

فالرازي يبين أن المراد بـ "جامع المنافقين" الزمن المستقبل ؛ لذا فإن أصله التنوين، والإضافة عدول عن الأصل .

كذلك "جامع الناس" عدول عن الأصل ، لأن الإضافة تفيد الزمن الماضي ، والمعنى المراد جمع الناس في المستقبل .

ويشترك سياق الآيتين في حديثهما عن الانقسام في الإيمان بآيات الله ، فتركيب "جامع الناس" في آل عمران بعد الحديث عن اتباع ما تشابه من القرآن، يقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران: ٧) وتركيب "جامع المنافقين" جاء مع نهي الله للمؤمنين عن القعود مع من يكفر بآيات الله ويستهزأ بها.

فتركيبا "جامع الناس" و "جامع المنافقين" إشعار بالوعيد لمن تركوا كما يشاءون في الدنيا ، يخوضون في آيات الله تعالى باتباعهم الماكر لما تشابه من القرآن ، واجتماعهم على الاستهزاء به.

فإذا كان اجتماع المستهزئين بالقرآن حاصلاً في الدنيا ، فإن الله تعالى يتوعدهم بجمعهم في الآخرة ، وهو أهون عليه من تركهم يجتمعون في الدنيا . فجاء الوعيد الذي أصله التنوين "جامع الناس" ، الدالة على التحقق في الزمن الماضي، ليؤكد الله تعالى على معاقبة الكفار بمثل جنس عملهم ، وهو في شأنه سبحانه عمل هين كالمحقق الموجود.

فجاء الوعد بجمعهم في الآخرة في صيغة الإضافة لأنه يماثل اجتماعهم في الدنيا ، في نوعه وفي إمكانية وجوده ؛ فعامله معاملة المتحقق الموجود.

(١) الرازي ، التفسير الكبير ، ٨٣/١١

حمالة؛

وهي صيغة المبالغة من اسم الفاعل "حامل" ، وجاءت في قوله تعالى:
﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (المسد: ٣-٤).

وإضافة "حمالة" إضافة لفظية أصلها التثوين ، فلفظ "حمالة" كما يقول
البيّنّا: ((نكرة حيث أريد بها الاستقبال ، أي حالها في النار كذلك))^(١) فالأصل:
حمالة الحطب .

وجاء في سبب نزولها ما ذكره الزمخشري عن زوجة أبي لهب أنها :
((كانت تحمل حزمة من الشوك فتنتثرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله
عليه وسلم))^(٢).

فكما كانت تحمل هذه المرأة في الدنيا ، تحمل في الآخرة أيضًا ، فهو
جزاء للعمل ، أو آثام مترتبة على فعلها في الدنيا كما يقول الرازي: ((المراد:
ما حملت من الآثام في عداوة الرسول ، لأنه كالحطب في تصييرها إلى
النار))^(٣).

فالجزاء من جنس العمل كما يوضحه ابن كثير في كونها تُعَيَّن زوجها
في النار واستعدادها لذلك ، يقول ابن كثير: ((كانت عونًا لزوجها على كفره
وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه في نار جهنم ، ولهذا قال
تعالى: ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعني تحمل الحطب
ليزداد على ما هو فيه ، وهي مهية لذلك ، مستعدة له))^(٤).

فإذا كان الوعيد لامرأة أبي لهب بحملها الحطب في نار جهنم وعيدًا لها
في الزمن المستقبل أصله التثوين ، فإن تركيب "حمالة الحطب" جاء بصيغة
الإضافة الدالة على الزمن الماضي المستمر ؛ مراعاة لما كانت عليه في الدنيا ،
فالفعل يستمر من الدنيا للجزاء المستمر في الآخرة.

(١) البيّنّا ، إتحاف فضلاء البشر ، ٦٠٦

(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ٦٤٨/٤

(٣) الرازي ، التفسير الكبير ، ١٧٣/٣٢

(٤) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٣١٩/٨

محيي :

جاء اسم الفاعل "محيي" مرتين ، وذلك في قوله تعالى:

١- ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الروم: ٥٠).

٢- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت: ٣٩).

وإحياء الموتى بعث لهم من القبور يوم النشور في الزمن المستقبل، فأصل التركيب الإضافي "محيي الموتى" صيغة التثنية العاملة الدالة على الزمن المستقبل.

ولدلالة الاستقبال جاء الفعل المضارع "يحيي" عشرين مرة في القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ (الشورى: ٩) فهي للاستقبال.

أما في آية الروم وآية فصلت فقد جاءت دلالة الاستقبال في صيغة الإضافة عدولاً عن أصل التثنية ، والسبب في ذلك أن الآيتين تصوران تجدد إحياء الأرض وموتها في الحياة الدنيا بإنزال المطر وإنبات الزرع ، فجاء اسم الفاعل "محيي" الدالّ على البعث في المستقبل بصيغة تحقق الوقوع ؛ لأن له متشابهاً مرئياً في الدنيا.

فمشاهدة إحياء الأرض بعد موتها دليل حسي على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى في المستقبل ، فهي تأكيد على هذه القدرة ، ممّا استدعى التركيب الإضافي الدالّ على الزمن الماضي (تحقق الوقوع) ليكون إحياء الموتى عن طريق صيغة الإضافة كالمحقق الموجود ، لما ذكره السياق من تحقق الإحياء ووجوده في صورة الأرض.

مقتنع :

جاء اسم الفاعل "مقتنع" مرّة واحدة ، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (إبراهيم: ٤٢-٤٣).

ومعنى "مهطعين" كما يقول الزمخشري: ((مسرعين إلى الداعي))^(١).

وعن معنى التركيب الإضافي "مقتنع رؤوسهم" ونوع إضافته يقول أبو السعود: ((رافعيها أو ناكسيها ، ويقال: أقع رأسه أي طأطأها ونكسها. فهو من الأضداد ، وهما [مهطعين ومقتنع] حالان مما دلّ عليه "الأبصار" من أصحابها ، والثاني حال متداخلة من الضمير في الأول ، وإضافته غير حقيقية ، فلا ينافي الحالية))^(٢).

فالإضافة غير حقيقية أصلها: "مقتنع رؤوسهم" ، وقد ناسب مجيئها في صورة الإضافة استمرار وقوعهم ، ودوام ذلهم في الآخرة خاصة وأن المقصود من إقناع الرأس وصفهم بالذل ، ووصف الذلّ دائم في كل ما يقع عليهم من عذاب في الآخرة سواء من الإقناع أو غيره .

وقد جاء السياق بالفعل المضارع "تشخص" الدالّ على الحال أو الاستقبال ، ومجيء دلالة الفعل المضارع "تشخص" على صيغته الأصلية مراعاة لتصوير بدء انتباههم ويقظتهم لبدء الحساب ، فيكون رد الفعل متجدّداً لمفاجأتهم بأحداث الحساب ، فالفعل يدلّ على بدء وتجدّد شخوص أبصار الظالمين لبدء انتقالهم لحال الرعب ، وذهولهم المتجدد أمام ما يحدث لهم .

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٥٤٦/٢

(٢) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، ٤٩٧/٣

أما المراد من "مقتعي رؤوسهم" فهو الذلّ الواقع بهم ، فجاء في صيغة الإضافة تأكيداً على وقوعه واستمراره بهم في كل أهوال الآخرة .

وهذا الفعل بالرأس امتداداً لفعلهم برؤوسهم في الزمن الماضي في الدنيا، يقول تعالى: ﴿ فسيقولونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ (الإسراء : ٥١) .

﴿ فَرجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٦٤-٦٥) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصْطُونُ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المنافقون : ٥) .

وهذه المواضع الثلاثة هي التي تصف حركة رؤوس الكفار في الحياة الدنيا .

أما حركة رؤوس الكفار في الآخرة فقد جاءت في تركيبيين إضافيين هما:

- "مقتعي رؤوسهم" . - "ناكسوا رؤوسهم" .

فإذا نظرنا إلى العلاقة بين حركة الكفار في الدنيا في قوله تعالى: ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ وبين حركتهم في الآخرة في ﴿ مقتعي رؤوسهم ﴾ نجد ما يلي:

١- قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾: ((قال ابن عباس وقتادة: "يحركونها استهزاء" وهذا الذي قالاه هو الذي تعرفه العرب من لغاتها ؛ لأن الإنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل ، ومنه قيل للظليم وهو ولد النعامة نغضاً لأنه إذا مشى عجل مشيته

وحرك رأسه))^(١) ففعلهم في الدنيا - كما وصف في تفسير ينغضون - ممثلاً لفعلهم في الآخرة من إسراع في المشي مع حركة رؤوسهم برفعها أو نكسها - كما جاء في تفسير "مقنعي رؤوسهم" ليكون الوعيد بإقناع الرأس في المستقبل بصيغة التركيب الإضافي "مقنعي رؤوسهم" الدالة على الزمن الماضي لوجود مثيل له في الماضي (الحياة الدنيا) فهو استمرار لفعلهم ، وتأكيذاً على وقوع الجزاء مثيلاً لعملهم في الماضي .

والخطاب في ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ وفي ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ * مهطعين مقنعي رؤوسهم ﴾ موجّه للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي كليهما ينسب الفعل (ينغضون - مقنعي) إلى الكفار بدعوته صلى الله عليه وسلم ، فهما عمل وجزاء لفئة واحدة .

وثمة علاقة - أيضاً - بين حركة الكفار في الدنيا في قوله ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ وحركة الكفار في الآخرة ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ .
فقد جاءت حركة الكفار في الدنيا "نكسوا" لقوم إبراهيم -عليه السلام- بعدما أقام عليهم الحجة وطلب منهم سؤال كبير أصنامهم ، لكن الكفار استمروا على عنادهم .

لتكون علاقة "نكسوا" بـ "مقنعي" عن طريق :

١- علاقة إبراهيم عليه السلام وقومه بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقومه كفار مكة ، وهى العلاقة التي بيّنها الله تعالى في قوله: ﴿ مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (الحج: ٧٨) وهى علاقة الدين الحنيف القائم على التوحيد وترك عبادة الأوثان ، وإبراهيم عليه السلام هو من يقصدونه أهل مكة (العرب) لرفعه قواعد البيت وامتداد أنسابهم إليه .

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٥٣/٥

٢- الآيات التي تسبق مباشرة حركة الكفار في الآخرة ﴿مُقْتَعِي رُءُوسِهِمْ﴾ في سورة إبراهيم هي دعاء إبراهيم -عليه السلام- لمكة ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: ٣٥).

إنها دعوة بالأمن والتوحيد لأهل مكة ، يليها دعوة بالرزق وفي ذلك امتنان على أهل مكة .

فالحديث عن حركة كفار إبراهيم عليه السلام في الدنيا وعنادهم واستمرارهم على عبادة الأوثان في سورة الأنبياء- إنما يرتبط بالحديث عن عقاب الله تعالى لمن كفر بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم وظلّ على عبادة الأوثان -في سورة إبراهيم- وكلّ الحديث عن عناد كفار إبراهيم وعبادتهم الأوثان موجّه إلى كفار مكة ودعوة لهم بتباع ملة إبراهيم عليه السلام .

فالقرآن يريد أن يقول لكفار مكة انظروا إلى أمثالكم ممن كفروا بأيكم إبراهيم ، وعبدوا الأوثان ، ونكسوا رؤوسهم بإقامة الحجة عليهم لكنهم استمروا في العناد ، وأراد بنبيهم كيّدًا فجعلهم الله الأخسرين انظروا إليهم فإن جزاءكم في الآخرة سيكون بإقناع الرأس إن تمسكنم بالعناد مع إقامة الحجة ، مثل كفار إبراهيم عليه السلام .

فوجود العناد في الدنيا بنكس الرأس سوّغ مجيء "مقتعي رؤوسهم" في صيغة الإضافة الدالة على الزمن الماضي مع أنها وعيد في المستقبل ، لترابط كلا الحركتين - نكس الرأس وإقناعها- ولذلك جاء تركيب "ناكسوا رؤوسهم" في الآخرة وسيأتي الحديث عنه -إن شاء الله- تعالى في هذا المبحث .

أمّا الموضع الثالث الذي جاء بوصف حركة الكفار في الدنيا فجاء في قوله تعالى: ﴿لَوْوَا رُءُوسَهُمْ﴾ وهو للمنافقين الذين يعاندون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تصف الآية صدّهم واستكبارهم والسياق يعمد إلى وصف

المنافقين ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَدَّةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (المنافقون: ٤).

وهذا الوصف يُبين فزع المنافقين "يحسبون كل صيحة عليهم" فزعاً يحيل إلى وصف القرآن الكريم للمنافقين في مواضع أخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (الأحزاب: ١٩) ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (محمد: ٢٠).

فالعلاقة بين "لَوْوَا رُءُوسَهُمْ" و "مَقْنَعِي رُءُوسَهُمْ" تمثلت فيما يلي:

١- أن الأولى حركة المعاندين للرسول صلى الله عليه وسلم والثانية جزاء المعاندين له في الآخرة ففي كلا الموضعين خطاب للرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

٢- تصوير القرآن الكريم لفزع المنافقين خاصة ظهور فزعهم على أعينهم وهو تشبيهه بتصوير القرآن لفزع المعاندين لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة في سياق مقنعي رؤوسهم: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ، ﴿لَا يَرْتُدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

وهذا الربط بين حركة المنافقين في الدنيا وإقناع الرأس في الآخرة يجعلهم من المعنيين بالوعيد في الآخرة لمن يعاندون رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفهم سياق "مقنعي رؤوسهم" بالظالمين ، فمجيء الوعيد لما هو مستقبل في صيغة الإضافة الدالة على الزمن الماضي "مقنعي رؤوسهم" إنما جاء لوجود مثل له في الدنيا (الزمن الماضي بالنسبة للآخرة) فتؤكد الصيغة على وقوع مثله في الآخرة ممن سبق لهم فعله ، فهو امتداداً من الفعل إلى الجزاء المماثل له ، عدلاً من الله تعالى في العقوبة .

فالعَدُول من العمل الفعلي المتجدد إلى صيغة الإضافة جاء مراعاةً لوجود مثيل له في الدنيا فهو كالمحقق جزاءً لمثيله المتحقق في الدنيا .

(ملاقي) :

جاء اسم الفاعل "ملاقي" مضافاً إلى الاسم الظاهر ثلاث مرّات ، وقد جاء في صيغة الجمع ، وهي في قوله تعالى :

١- ﴿وَاسْتَعِيبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة : ٤٥-٤٦)

٢- ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة : ٢٤٩)

٣- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (هود : ٢٩)

ولقاء الله -عز وجل- لا يكون إلا في الدار الآخرة ، فاللقاء في المواضيع الثلاثة لقاء في المستقبل ، فالمعنى كما يقول الزمخشري: ((أنهم يلاقون الله ، فيعاقب من طردهم ، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم))^(١) فاللقاء في الزمن المستقبل ، فالأصل في اسم الفاعل "ملاقو" أن يكون عاملاً ، لكنه جاء مضافاً للدلالة على ثبوت اللقاء وتحققه ؛ لأنه يقين وأملٌ عند المؤمنين ، فالمواضع الثلاثة للمؤمنين .

والموضع الأول يخصّ هذا الوصف للخاصين في صلاتهم ، والموضع الثاني يخصه للمجاهدين الثابتين عند لقاء الموت ، وكلاهما لقاء الله ، فالصلاة انقطاع عن الدنيا وصلة بالله تعالى ، والجهاد انقطاع عن الدنيا وإقدام على لقاء الله تعالى .

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٣٩٩/٢

وموضع سورة هود جاء على لسان نوح عليه السلام وهو ينفي طرده للمؤمنين ويصفهم بلقاء الله تعالى ، ووجود المؤمنين مع رسول الله نوح عليه السلام (وهم قلة يصفهم الكفار بالأراذل) ينصرون الله ورسوله ، إنما هو نوع من الثبات واليقين ، وإيمان قوي بلقاء الله ، بل كأنه لقاء مع الله تعالى حقاً بلقائهم مع رسول الله ، ونصرتهم لله ، فكأنهم رأوا الله سبحانه ، فحق العباد أن تعبد الله كأنك تراه.

فنوح عليه السلام ينفي طردهم أي الفرقة عنهم لأنهم فعلاً في معيته ، ومعية رسول الله هي معية الله سبحانه.

فالأصل أن يأتي اسم الفاعل "ملاقوا" في مواضعه الثلاثة في صيغة العمل الفعلي الدالّ على لقاء الله في الآخرة ، لأنه لقاء في الزمن المستقبل ، لكن السياق عدل عن الأصل إلى صيغة الإضافة الدالة على الزمن الماضي لأنه لقاء كالمحقق الموجود ، سوّغه تحقق هذا اللقاء فعلاً في الحياة الدنيا (الزمن الماضي بالنسبة للآخرة) فالمؤمنون لاقوا الله في صلاتهم ، وفي جهادهم (وهما انقطاع عن الدنيا) وفي معيتهم لرسول الله .

وقد جاء اسم الفاعل "ملاق" منوئاً مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٌ حِسَابِيَّ﴾ (الحاقة: ٢٠) وهي على لسان المؤمن حكاية عن نفسه في الدنيا ، وقد انتهى حسابه ونال جزاءه ، فلا يوجد داع للتأكيد كما أنّ لقاء الحساب ينتهي بالجزاء ، أما لقاء الله تعالى فهو أملٌ ونعيمٌ مستمر.

مُنْذِرٌ:

جاء اسم الفاعل "منذر" مضاعفاً مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا*فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا*إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَاهَا*إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ (النازعات: ٤٢-٤٥).

يقول الزمخشري في تفسيره للآيات: ((لم تبعث [يا محمد] لثعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه ، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها ، من يكون إنذارك لطقاً في الخشية منها ، وقرئ: "منذرٌ من" بالتنوين ، وهو الأصل ، والإضافة تخفيف ، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال ، فإذا أريد المضي فليس إلا الإضافة ، كقولك: هو منذرٌ زیدٌ أمس))^(١).

فيحتمل أن تكون الإضافة -هنا- إضافة حقيقية ، فهي وصف للرسول صلى الله عليه وسلم من باب الردّ على من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن موعد الساعة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ، وإنما صفته التي بعث من أجلها الإنذار ، فهو منذرٌ الناس بالساعة ، وتحقق ذلك بإيمان من يخشاها.

ويحتمل أن تكون إضافة (منذرٌ من) غير حقيقية أصلها التنوين ، ويراد بها الحال أو الاستقبال ، وهو معنى يقبله السياق ، بدليل قراءة التنوين. ويناسب إرادة زمن الحال أو الاستقبال أنّ السورة مكية ، والسياق يردّ على الكفار ؛ فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم منذراً للساعة في زمن الحال والاستقبال ، خاصة وأن معنى الإنذار يتطلب العمل في الحال أو الاستقبال ، على غير معنى: "إنما أنت رسولٌ من يخشاها" وهو معنى الإضافة الحقيقية .

ويقول ابن منظور عن معنى الإنذار: ((والإنذار: الإبلاغ ، ولا يكون إلا في التخويف))^(٢) فالإنذار في أصله وعيد بالعذاب ، فالأصل أنه للكفار الذين لا يؤمنون بقيام الساعة ، لذا نجد اسم الفاعل "منذر" يحمل دلالة التخويف للكفار وذلك في مواضعه الأخرى في القرآن الكريم .

فقد جاء اسم الفاعل "منذر" -المفرد- منوئاً أربع مرات وذلك في قوله تعالى :

١- ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد : ٧)

٢- ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ (ص : ٤)

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٥٤٣/٤

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (نذر)

٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ (ص : ٦٥)

٤- ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ (ق : ٢)

وفي جميعها أريد بالمنذر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو إنذار للكفار الذين لا يؤمنون بالبعث .

فالإنذار في أصله وعيد للكفار ، فعندما يكون الإنذار للمؤمنين (من يخشى الساعة) فهو من باب تذكير المؤمنين بما يتطلبه إيمانهم ، إنذاراً لهم من العقاب بعد الساعة .

فالإنذار يدلّ على معنيين:

١- إنذار الكفار ليؤمنوا بالبعث .

٢- إنذار بالعقاب المترتب على ترك العمل ، وهو لمن آمن بالساعة ويخشى قيامها ، فالإنذار يكون له بما يترتب عليه إن لم يعمل لما بعد الساعة . وقد جاء الإنذار في صيغة الإضافة (إنما أنت منذرٌ من) على الرغم من أنّ عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بالإنذار ما زال متجدّداً في الحال والاستقبال ، لبيان صرف الرسول صلى الله عليه وسلم عن إنذاره للكافرين الذين لا يعنيه إلا موعد قيام الساعة إلى إنذاره من يخشى الساعة ، وهو إنذار للمؤمن ، ليعمل لما بعد الساعة ، بعد ما سبق أن أُنذر ليؤمن بالساعة ، فهو إنذار للمؤمن من العقاب على المعصية ، تدلّ على خشية المنذر (من يخشاها) وإيمانه بالساعة ، فقد سبقه إنذار من الكفر بها .

فتجدد الإنذار للمؤمن الذي يخشى الساعة أولى من إنذار من لا يعنيه من الساعة إلا السؤال عن وقتها ، وهذا العمل المتجدد في الحال والاستقبال (الإنذار) جاء في صيغة الإضافة لوجود إنذار سابق تحقق بإيمان من يخشى الساعة .

وفي الإضافة -أيضاً- تأكيد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يكمل عمله في الحال والاستقبال بإنذار الناس ، دون يأس بسبب جحود الكفار وانصرافهم عن الإيمان بالساعة إلى السؤال عن وقتها ، وسيجد الرسول صلى الله عليه وسلم من يؤمن بالساعة ويخشأها ، فهو تأكيد بأن يستمر الرسول صلى

الله عليه وسلم في عمله ، فهو كالمحقق الموجود ، وفائدة عمله (الإيمان بالساعة) متحققة بالاستمرار في الإنذار .

فهو عدول إلى الإضافة داعية أن الإنذار في أصله عمل متجدد للكفار ، لكنه عدل إلى أن يكون الإنذار لمن يخشى الساعة ، فجاء بالعدول إلى الإضافة ليفيد أنه إنذار لمن تحقق فيه الإنذار من قبل واستفاد منه ، ليبيّن فائدة الإنذار ، وليؤكد على الاستمرار فيها بمعاملتها معاملة المحقق في وجودها وفي الاستجابة لها .

ناكس:

جاء اسم الفاعل "ناكس" مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (السجدة: ١٢) وقد ذكر الزمخشري مسوغ مجيء الآية كلها في صيغة الزمن الماضي ، مع أنها تفيد الزمن المستقبل ، وذلك بقوله: ((و"لو" و"إذ" كلاهما للمضي ، وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود ، والمقطوع به في تحقيقه))^(١) فهو وعيد من الله تعالى يقع في الآخرة وجاء في صيغة المحقق الموجود .

وعند الحديث عن التركيب الإضافي "مقنعي رؤوسهم" سبق الحديث عن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ (الأنبياء : ٦٥) وهى تصف نكس المشركين من قوم إبراهيم عليه السلام رؤوسهم في الدنيا بعد إقامة الحجة عليهم ، لكنهم استمروا في العناد وأرادوا حرق نبيهم ، وقد تحدّثت عن العلاقة بين إبراهيم - عليه السلام - وقومه من جهة وبين كفار مكة المعنيين بالتركيب (مقنعي رؤوسهم) وتركيب (ناكسوا رؤوسهم) من جهة أخرى .

فالمشركون نكسوا رؤوسهم في الدنيا واستمروا في العناد فجاء الوعيد في الآخرة (المستقبل) بنكس الرأس في صيغة الإضافة الدالة على الزمن

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٥٣٨/٣

الماضي (ناكسوا رؤوسهم) لمسوّغ التذكير بفعلهم في الماضي وهو مثل ما يُفعل بهم في المستقبل .

ونجد في السياق تركيب (ناكسوا رؤوسهم عند ربهم) في سورة السجدة أمراً آخر مأخوذاً من تخصيص مكان نكس الرأس (عند ربهم) .

لقد سبق آية (ناكسوا رؤوسهم عند ربهم) قوله تعالى واصفاً المشركين في الدنيا ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (السجدة: ١٠) فلما كان الكافرون يكفرون بقاء ربهم في الدنيا جاء التأكيد على نكس رؤوسهم عند ربهم ، تأكيداً على تحقق هذا الفعل الذي يكفرون به .

وفي سياق التركيب الإضافي (ناكسوا رؤوسهم) في سورة السجدة يأتي الحديث عن السجود وهو للمؤمنين في مقابل فعل الكافرين في الدنيا ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (السجدة: ١٥) وسجود المؤمن إيماناً بآيات الله يقبله رفض الكافر أن يؤمن بآيات الله ، مع أن الكافر أقيمت عليه الحجة ، فنكس رأسه في الدنيا لإقامة الحجة عليه ، واستمر في عناده ، ورفض الإيمان بالله وآياته ولقائه ، ورفض السجود لله .

فالأصل في الوعيد بنكس الرأس الصيغة العاملة (ناكسون رؤوسهم) لدلالة الوعيد على الزمن المستقبل (في الآخرة) فجاء العدول عن الأصل إلى صيغة الإضافة الدالة على الزمن الماضي ليؤكد للكفار تحقق الوعيد في المستقبل ، ولا غرابة في ذلك إذ أن الكفار قد نكسوا رؤوسهم في الماضي (الدنيا) لإقامة الحجة عليهم لكنهم لم يؤمنوا ، وطلب منهم السجود (الذي يشبه تنكيس الرأس) كما يسجد المؤمنون إذا ذكروا بآيات الله لكن الكفار رفضوا أن تسجد رؤوسهم في الدنيا (الماضي) فجاء العقاب بنكس رؤوسهم في المستقبل في صيغة الماضي ، ليبين الله تعالى أن الجزاء في المستقبل لاحقٌ بالعمل في الماضي فكان الجزاء مشاكلٌ للعمل ، فالجزاء من جنس العمل .

موهن :

جاء اسم الفاعل "موهن" مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الأنفال: ١٧-١٨).

يقول الزمخشري عن قوله تعالى: "مُوهِنٌ كَيْدٌ": ((وقرى على الإضافة، وعلى الأصل الذي هو التنوين والإعمال))^(١) ويعتل البنا الإضافة بأنها: ((بالتخفيف من غير تنوين))^(٢).

وسورة الأنفال التي جاء فيها التركيب الإضافي "موهن كيد" ((نزلت في بدر))^(٣) ، والسورة تتحدث عن النصر والغنائم ، وهما نتيجة ما تحقق يوم بدر ، وفي هذا السياق جاء قوله تعالى: ﴿ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴾ مبشراً بإضعاف الكافرين في المستقبل ، يقول ابن كثير: ((وقوله: ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر ، أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل))^(٤).

فالآية الكريمة بشارة بكسر شوكة المشركين ، واستمرار هزيمتهم - بعد النصر الأول في بدر - بنصرة الإسلام بالفتح المبين .

ولعل ما يشير إلى أن "موهن كيد الكافرين" بشارة بالفتح ، مجيء لفظ "الفتح" في الآية التي تليها ، يقول تعالى: ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ﴾ (الأنفال: ١٩) وقد ذكر ابن كثير في تفسيره لمعنى "تستفتحوا": ((كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا الله وقالوا: اللهم أنصر أعلى الجندين، وأكرم

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ٢/٢٤٦

(٢) البنا ، إتحاف فضلاء البشر ، ٢٩٧

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٣/٤

(٤) نفسه ، ١٨/٤

الفتن ، وخير القبياتين . فقال الله: ﴿ إِن تَسْتَقِحوْا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ يقول: قد نصرتُ ما قلتم وهو محمد صلى الله عليه وسلم))^(١).

فالفتح الذي جاء للمشركين كان نصر بدر ، وآية "موهن كيد الكافرين" بشارة بنصر من الله تعالى يقضي على الشرك ، فهو فتح آخر ، هو الفتح المبين لمكة ، فالسياق الذي ييشر بفتح مكة يسمى نصر بدر بالفتح ، وهو ليس مجرد إطلاق للفظ "الفتح" على نصر بدر من باب مدح هذا النصر ، وإنما تسمية لنصر بدر بالفتح من استفتاح المشركين ، أي طلبهم النصر من الله ؛ لتكون تسمية نصر بدر بالفتح مقبولة ومعترفاً بها من المخاطبين مسلمين ومشركين ، ثم ثبني عليها البشارة بالفتح المبين ، غير الموجود وغير المعترف به وقتها . فالقرآن الكريم لا يأتي بالمشاكلة على إطلاقها ، وإنما يبينها على أساس مقبول .

وعليه يدرك مسوغ الإضافة ، فإذا كان الأصل التنوين: "وأن الله موهنٌ كيدَ الكافرين" لأنه وعد من الله لما يحدث في المستقبل ، فإنه جاء في صيغة الإضافة "موهنٌ كيدٌ" تأكيداً على تحققه ، فهو كالمحقق الموجود ، سوّغه حديث السياق عن أول نصر (فتح) للمسلمين ، فلما كان هذا النصر (نصر بدر) موجوداً ، بيّن أنه ليس بمعجز على الله تعالى تحقيق وعده في المستقبل بفتح مكة والقضاء على الشرك .

فجاء الوعد بصيغة الإضافة بمسوغ تحقق نصر (فتح) مماثل ، لداعي التأكيد على توالي النصر حتى زمن الفتح المبين.

(١) نفسه ، ١٩/٤